

تعليق على بحث المُمرات اللامانية في فلسطين

للدكتور عبد اللطيف الطيّابوي

مقالة الدكتور علي محافظة عن هذا الموضوع في العدد المزدوج (السنة الثالثة) ص ٤٦ ، وما يليها ، تستحق الدرس وهو يستحق الثناء لكتابتها ، فهي تكاد تكون الوحيدة التي تناولت الموضوع في اللغة العربية . وقد راجعتها على ضوء ما كتبتُه عن تلك المستعمرات في مؤلفاتي باللغة الانكليزية ، ووضعتُ في اثناء المراجعة ملاحظات على هوامش الصفحات ، اذكر بعضها فيما يلي :

جاء في الفقرة الاولى من المقالة ان من اغراض كاتبها معالجة « الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت وراء انشاء هذه المستعمرات » . فاستوقفني ذلك لعلمي ان انشاءها كان دافعه دينياً محضاً ، ولم يَزَلْ استفراحي إلا بعد اكمال قراءة المقالة ، فلم اجد فيها بحثاً لدوافع سياسية او اقتصادية .

وكذلك استفربت مقدمة في نحو اربع صفحات ، مستمدة من مصادر ثانوية ، تشير الى بعض المشاريع لإعادة اليهود الى فلسطين ، إذ لم ار لهذا من صلة مباشرة مع رغبة طائفة نصرانية المانية في الهجرة الى فلسطين انتظاراً لعودة السيد المسيح . ولكنني حققتُ ما ذكره الكاتب عن تأسيس القنصلية البريطانية في القدس سنة ١٨٣٨ ، وخاصة قوله ان وزارة الخارجية امرت القنصل « ببسط حمايته على كافة

اليهود المقيمين في فلسطين » . وسبب التحقيق أن الكاتب نسب ذلك إليّ اعتماداً على الصفحة ٣٣ من كتابي باللفة الانكليزية « المصالح البريطانية في فلسطين : ١٨٠٠ - ١٩٠١ » (١) . ولكن نص الأمر الذي اثبتته بحروفه لا ينطبق على ما نسبته الكاتب إليّ ، فلا ذكر في النص لقوله : « كافة اليهود المقيمين في فلسطين » . اما قوله « بسط حمايته » فهو اقوى بكثير من الأصل الانكليزي الذي معناه « تسهيل الحصول على الحماية » "to afford protection"

اما مقدمة المقالة التي لها في رأيي صلة مباشرة بموضوعها فتبدأ بعد ذلك ، عند ذكر اقتراح مُؤن مُولْتِكِي في سنة ١٨٤١ إقامة دولة نصرانية في فلسطين تحت رئاسة أمير ألماني . ومرة أخرى نسب الكاتب إليّ ما لم أقله على الصفحتين ٤٤ - ٤٥ من كتابي المذكور . فلم أقل ان مُرْدِرِك وَلِيم الرابع ملك بروسيا وافق او لم يوافق على اقتراح مُولْتِكِي . والذي قلته ان الملك اراد ، لأسباب دينية محضة ، انشاء أُسْقُفِيَّة بروسية - بريطانية في القدس . وقد امكن اكتشاف هذين المثلين على طريقة الكاتب في النقل لسهولة مقابلة المنقول مع الأصل في مكتبي . لكنه لا يصح الاستنتاج ان ذلك ينطبق على المصادر الأخرى التي لا تسهل مقابلة ما نقله الكاتب عنها مع أصله . وكل ما يصح استنتاجه ان المقابلة مفيدة .

معظم مادة المقالة مأخوذ عن : ١ - كتاب بالالمانية عنوانه « تاريخ المستعمرات الالمانية في فلسطين » لمؤلفه هانس بَرُوغَر ، جاء ذكره في الهوامش اكثر من عشرين مرة . وعن ٢ - كتاب آخر بالالمانية عنوانه « تاريخ حيفا في العهد العثماني » ، ومقالتين بالانكليزية عن

(1) British Interests in Palestine : 1800-1901 (Oxford, 1961), P. 33 ;

المستعمرات الألمانية ، لمؤلف اسرائيلي اسمه ألكس كارمل ، جاء ذكر مؤلفاته في الهوامش أيضا اكثر من عشرين مرة . وهناك مصدر ثالث وهو السجلات الألمانية الرسمية التي جاء ذكرها في الهوامش نحو عشر مرات . ولكن المأخوذ عنها قليل في كميته وأهميته .

ولعل اعتماد كاتب المقالة اعتماداً كبيراً على كارمل ، ونقله عن مؤلفين اسرائيليين آخرين ، دون نقد لما نُقل ، جعل الصورة النهائية للمستعمرات الألمانية غير كاملة ؛ وأذكر مثلاً واحداً على ذلك ، وهو خلُّو المقالة من ذكر فضل المستعمرين الألمان على المستعمرين اليهود في الزراعة . فقد حاول بعض اليهود إقامة أول مستعمرة في بِتَّاح تَقْنَا فآخفقتوا ، ثم حاولوا ذلك بعد بضع سنوات فنجحوا ، فكان بعض الفضل في نجاحهم عائداً الى الألمان الذين علّموا اليهود كيفية ري الارض في ماء نهر العوجا بواسطة المضخّات . وهذا وغيره مذكور في كتابي باللغة الانكليزية « العلاقات البريطانية — العربية ومسألة فلسطين : ١٩١٤ — ١٩٢١ » (٢) .

بعد هذا لا بُدّ من سؤالين بشأن هوامش المقالة : الاول يتعلق بالهامش رقم (٩) الذي ورد فيه لأوّل مرة ذكر كتاب بالألمانية عنوانه « تاريخ الكنيسة الانجيلية وبعثاتها التبشيرية في فلسطين » . ومع ان هذا الكتاب يرد ذكره مراراً بعد ذلك في الهوامش ، فانه لا ذكر لمؤلفه (او مجرره او ناشره) او مكان طبعه او سنة الطبع . والسؤال الثاني هو عن مصير الهوامش ٣٠ — ٣٩ ، فأرقامها موجودة في نص المقالة ، ولكن الهوامش العشرة نفسها ضائعة . فيما خسارة القارئ .

(2) Anglo-Arab Relations and the Question of Palestine : 1914-1921 (Luzac, London, 1977), PP. 16-17; 26-27

تبدأ المقالة بذكر « جمعية الهيكل » الألمانية التي اعتقد أفرادها بقرب عودة السيد المسيح ، فأرادوا الهجرة الى فلسطين واتخاذها وطناً لهم انتظاراً لتلك العودة . وليت الكاتب ربط هذه الحركة الألمانية بنظائرها في العالم البروتستانتى ، وخاصة في انكلترا وأمريكا . فقد سبقت طائفة أمريكية غيرها من الطوائف التي اعتقدت بقرب عودة السيد المسيح ، فهاجرت الى فلسطين واقامت في ضاحيه من ضواحي يافا عُرِفَت عند العرب منذ ذلك الوقت « بِالْمَلْكَان » تحريفاً عن « الأمريكان » . ولكن الأمريكان لَمْ يَثْبُتُوا ، واضطروا لأسباب مختلفة الى بيع بيوتهم الخشبية التي جلبوها معهم الى الألمان الذين استقروا في سنة ١٨٦٨ في اول مستعمرة لهم عند أسفل سفح جبل الكرمل في حيفا . فصارت المَلْكَان ثاني مستعمرة المانية بعد حيفا .

واسهب كاتب المقالة في بحث الاختلافات الدينية بين « جمعية الهيكل » والكنيسة الألمانية ، كما أسهب في بحث الاختلافات بين زعيمى الجمعية ، حتى انه لخص في عدد من الصفحات محتويات كتبهما ، وترجم لكل منهما ترجمة طويلة فبلغ مجموع الترجمتين بحروف صغيرة ثلاثة وعشرين سطراً . وراي أن الاسهاب في كل ذلك غير ضروري للبحث الأساسى ، ونشأ عنه شيء من قلّة التوازن في المقالة ، فما جاء فيها عن المستعمرات قليل بالنسبة الى ما جاء عن المواضيع الجانبية والاستطرادات الكثيرة . فاذا استثنينا ذلك واقتصرنا على المادة الأساسية ، فهذه بعض الملاحظات عليها :

- ١ - ص ٦٢ : يقول الكاتب ان مستعمرة « سارونا » أُسست سنة ١٨٧١ « على طريق يافا - تل ابيب » . وهذا لا يصح تاريخياً ، لأنّ تل ابيب لم يكن لها وجود قبل سنة ١٩٠٩ .

٢ - ص ٦٤ : ويقول الكاتب إن مستعمرة « وَلَهْلَا » أُسست سنة ١٨٩٢ « على طريق يافا - تل أبيب » وهذا مثلُ سابقه لا يصح تاريخياً .

٣ - ص ٦٤ : يقول الكاتب ان مستعمرة « وَلِهْلِمَا » تقع الى الشمال الشرقي من اللد . والناظر الى الخارطة يرى انها واقعة الى الشمال من اللد . ولا يقول الكاتب إن هذه المستعمرة أُسست تخليداً لزيارة الامبراطور الألماني غليوم الثاني لفلسطين في سنة ١٨٩٨ . والكاتب يذكر هذا الامبراطور وكذلك الملك فمردك وليم وغيرهما بأسمائهم الألمانية . وهذا مشوّش للقارىء العربي الذي لا يعرف اللغة الألمانية . فالامبراطور معروف عند العرب في كتبهم ومدارسهم باسم « غليوم الثاني » ، كما هو معروف عند الانكليز بالامبراطور أو القيصر وليم الثاني . ولا يقولون عنه وَلِهْلِم ابدأ .

٤ - ص ٨٣ : والكاتب مخطيء بقوله إن الامبراطور غليوم الثاني زار فلسطين على ظهر بارجة من البوارج الألمانية . فالحقيقة انه جاء مع الامبراطورة وحاشيتهما على ظهر اليخوت الامبراطوري « هُونزُولِرْن » تحرسهم البوارج الألمانية والعثمانية . وتفصيل ذلك موجود في كتابي باللغة الانكليزية بعنوان « تاريخ سورية الحديث مشتملا على لبنان وفلسطين » . وفي هذا الكتاب ان الامبراطور وكسل الى شركة كوك البريطانية تدبير جميع ما احتاجته الرحلة برّاً من حيفا الى يافا فالرملة فالقدس ، من خيّم واسرّة واثاث ومطابخ وخدم . وكان الغرض الأول من زيارة الامبراطور تدشين الكنيسة الألمانية الجديدة التي بنيت بقرب كنيسة القيامة ، ولكنه زار الأماكن المقدسة قبل مفادرة

المدينة مع الامبراطورة والحاشية بقطار خاص الى يافا حيث كل
اليخت الامبراطوري في الانتظار (٣) .

٥ - ص ٨٥ : لم يذكر الكاتب ان الامبراطورة اُوغُستَه فكتوريا كانت
مع زوجها الامبراطور غلبوم ، ولكنه ذكر النشاء العليم الذي
اقيم فيما بعد في القدس تخليداً لاسم الامبراطورة . واهل
القدس يعرفون هذا البناء المشهور على جبل الزيتون ، فهو
بُشْبِه قلعة من قلاع منطقة نهر الرّأين . وقد تم بناؤه قبيل الحرب
العالمية الاولى ، وصار داراً للحكومة في اول عهد الانتداب
البريطاني ، ووضع الكاتب اسم هذا البناء كاملاً باللغة الالمانية ،
ولكنه اخطأ في تهجئة الاسم الثاني للامبراطورة ، فهذا يُكْتَب
بحرف "K" لا بحرف "C" كما هو في الانكليزية .

وهناك اغلاط في الالمانية والفرنسية والانكليزية في نص المقالة
وفي هوامشها ، بعضها مطبعي وبعضها غير ذلك كما يتضح من الامثلة
الآتية :

١ - ص ٥١ : في نص المقالة هاتان الكلمتان (Hof prediger)
وترجمها الكاتب « بقسيس البلاط » . ولكنهما في الالمانية كلمة
واحدة وتكتبان معاً كلمة واحدة .

٢ - ص ٦٣ : ذكر الكاتب ان سعر الهكتار الواحد من ارض مستعمرة
« سارونا » كان « مئة غولد Guld » . والصحيح ان
تكون غُولْدَن : Gulden

(3) A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine
(Macmillan, London, 1969), PP. 188 - 194

٣ - ص ٦٨ : في نص المقالة هاتان الكلمتان تبدأ كل منهما بحرف كبير (Kolonisations Kasse) وترجمهما الكاتب « بصندوق

الاستعمار » . ولكنهما في الألمانية كلمة واحدة وتكتبان معاً كلمة واحدة .

٤ - ص ٧١ : ذكر الكاتب في النص « الحزب الوطني الحر » وكتب اسمه بالألمانية هكذا : (Der Nationalliberden Partei)

وأداة التعريف هنا خطأ والواجب أن تكون Die . أما الكلمة الأولى بعدها فلا معنى لها بهذه التهجئة ، والغالب أن الكاتب أراد أن يكتب : Nationalliberate

٥ - ص ٧٨ : ترجم الكاتب اللقب الألماني "Graf" بكلمة

« أمير » . وهذا لا يصح ، فأمر معناها بالألمانية Prinz

فإذا كان لا بد من الترجمة فكلية نبيل قريبة من الأصل الألماني . لكن ما المانع من كتابة « غراف فلان » كما نكتب « لورد فلان » ؟

٦ - ص ٨٠ : جاء في نص المقالة هاتان الكلمتان الفرنسيتان (وكل منهما تبدأ بحرف كبير) : Penetration Pacifique .

وترجمهما الكاتب « بالفزو الاقتصادي » وهذا خطأ ، فمعناها « التغلغل الهاديء أو السلمي » . وكان الواجب أن تكتب الكلمة الأولى هكذا : pénétration ولا حاجة لحرف كبير في أول كل من الكلمتين .

وفي الختام لا بد من ملاحظة بشأن استعمال كلمة « الاستعمار مقابل (colonisation) ، وكلمة « المستعمرين » مقابل

(colonists) ، وكلمة مستعمرة مقابل (Colony)

فقد اعتاد العرب في فلسطين منذ أكثر من نصف قرن استعمال هذه الاصطلاحات عند ذكر الألمان أو اليهود . ولا سبب لتغيير هذا الاصطلاح المؤلف ، واصطناع ما أوحته الدعاية الاسرائيلية لمن يكتبون بالعربية تحت إرشادها داخل اسرائيل ، فهؤلاء هم الذين أدخلوا كلمات « الاستيطان » و « المستوطنين » و « المستوطنة » . ولا يخفى ما بين المؤلف والدخيل من فرق في المعنى والمغزى . وقد استعمل كاتب المقالة المؤلف من هذه الاصطلاحات أكثر من استعماله الدخيل ، ولا شك أن استعماله الدخيل كان دون وعي ، شأنه في ذلك شأن كثير من كتاب العرب المحدثين .